ثم نفت أنها منحتهم حصانة قضائية بل حصانة سمّتها دبلوماسية ثالثاً، وأخيراً ألقت بمسؤولية ذلك على الحكومة السابقة لها، وكأن حكومة المالكي سقطت من السماء ولم يشكلها ويقودها التحالف السياسي ذاته، والحزب الإسلامي ذاته «الدعوة الإسلامية»، وله ينتمي العبادي الذي وصف المواهب القيادية لزعيمه الحزبي السابق والحالي – المالكي - حين تسلم منه مهمات الرئاسة بـ«المذهلة»!

ـ الموافقة على تشكيل قوات «الحشد الشعبي» من الفصائل الشيعية المسلحة كـ«بدر» و«العصائب» و«كتائب حزب الله» و«سرايا السلام» الصدرية و«سرايا المجاهدين» و«كتائب عاشوراء» التابعة لحزب المجلس الأعلى و«كتائب الإمام علي» وغير ذلك من كيانات مسلحة، وتمويلها وتسليحها بمبالغ طائلة. صحيح أن المردود العسكري لهذه القوات لا يمكن إنكاره في صد مسلحي «داعش» ووقف تداعيات الانكسار العسكري للجيش الحكومي في الموصل وتكريت والفلوجة ولكن المعارك لم تحسم وليست في طريقها إلى الحسم القريب بل دخل الوضع العسكري في حالة من الجمود وثبات الخنادق بعد استعادة بضع بلدات منها آمرلي وبيجي وجرف الصخر إضافة الى مصفاة بيجي وسد الموصل، ثم أن الثمن الاستراتيجي لتشكيل هذه القوات اجتماعي لذلك سيكون باهظاً. وقد تحولت هذه القوات بمرور الوقت وحيثيات الأمر الواقع إلى قوات مسلحة مدنية من مكون طائفي واحد، رغم أن المرجعية الشيعية العليا حين دعت إلى تشكيل هذه القوات قامت بتوسيع دعوتها لاحقاً لتشمل «جميع فئات الشعب العراقي وعلى أن يتطوع القادرون والمستجيبون لدعوتها في صفوف الجيش وليس في مليشيات مستقلة عنه». نستدرك ونضيف أن السياسيين العراقيين يعتبرون كلمة «مليشيات» الأجنبية والتي ليس لها مقابل عربي حصري سُبة وشتيمة، ربما لأن أغلبهم قادمون أو مدعومون من مليشيات! وقد زاد من حساسية هذه الكلمة أن الإعلام الطائفي والتكفيري المضاد دأب على وصف هذه القوات بـ«المليشيات السائبة»، علماً أن كلمة «مليشيات» استقرت في الاستعمال الإعلامي والسياسي العراقي للدلالة على المليشيات الشيعية فقط، أما المليشيات السنية فيشار إليها بعبارة «الجماعات المسلحة» وهذان الاستعمالان عراقيان حصراً.

ـ الموافقة على تشكيل مليشيات مقابلة للحشد الشعبي تدعى «الحرس الوطني» في المناطق ذات الغالبية العربية السنية، والتي رفضت أغلب زعامات هذه المناطق دخول الجيش العراقي وقوات الحشد الشعبي لمحافظاتها. واعتبرت ذلك خطأً أحمر، رغم أن بعض هذه الزعامات حملت مسؤولية سيطرة «داعش» على عدد من مدن هذه المناطق لانسحاب الجيش الحكومي وطالبت بإرسال المزيد من هذه القوات الحكومية في مناسبات أخرى. ويتأكد بالتدريج ومن خلال تسريبات وتصريحات رسمية أن الحرس الوطني سيتشكل من مكون واحد هو المكون العربي السني وبقيادات عسكرية من جيش النظام السابق والمنظمات المسلحة التي تشكلت في سنوات الاحتلال الأولى وتحت الإشراف العسكري والسياسي الأميركي المباشر والكثيف وبتمويل عراقي.

إن جوهر هذا التطور يعني تحويل المحاصصة الطائفية في المؤسسات الأمنية ومنها الجيش إلى تأسيس جيوش منفصلة قائمة على أساس طائفي وعرقي

كانت صفقة «عبد المهدي / برزاني» ذروة سياسة التفريط التي انتهجها العبادي

هي الحشد الشعبي الشيعي والحرس الوطني العربي السني والبيشمركة الكردي، وقد قوبلت دعوة أحد أقطاب نظام المحاصصة، (هو مستشار الأمني الوطني السابق والمعين من قبل حاكم العراق الأميركي بول بريمر، الطبيب موفق الربيعي) لدمج هذه الجيوش في قوة واحدة تدعى «قوات الحرس الوطني» بالسخرية والاستهزاء من قبل جميع الأطراف.

استمرت حكومة العبادي في المسار التفريطي الذي بدأت بعض تمظهراته في عهد الحكومات السابقة كالتعيينات الإرضائية ذات الطابع السياسي، إذ عُيّن أغلب القيادات السياسية السابقة في مناصب لا مردودية لها، ولا قيمة سياسية أو إدارية ولكنها برواتب خيالية، كتعيين ثلاثة نواب لرئيس الجمهورية تصدق عليهم صفقة «الأصدقاء الألداء»، وهم علاوي والمالكي والنجيفي. وهؤلاء الثلاثة لم يجتمعوا سوية على طاولة اجتماع واحدة ذات مرة، ويكفي لمعرفة طبيعة هذه التعيينات التفريطية أن نعلم أن رئيس الجمهورية نفسه ذو منصب تشريفي ورمزي فكيف يكون له ثلاثة نواب؟ إضافة الى ذلك استمر تعيين وانتخاب نائبين لرئيس مجلس النواب ومثلهما لرئيس الوزراء علماً بأن الاتفاق قد أجري بين أهل الحكم على أن تكون هذه المناصب للفترة الانتقالية فقط وقد انتهت هذه الفترة منذ ثماني سنوات.

خلاصة القول هي أنّ هذه الأمثلة على النهج التفريطي الذي يعتمده العبادي وتحالفه المهيمن على الحكم ليس جديداً، وهو لن يكون حلاً لمعضلة النظام غير القابلة للحل وهي من ناحية أخرى تعبير صريح على موت وفشل هذا النظام أولاً. وهي الوجه الآخر للعجز عن إصلاح غير القابل للإصلاح الذي وصلت إليه حكومة المالكي السابقة لها، فرغم أن منهجية المالكي اعتمدت الإفراط في الممانعة والرفض اللفظي واللف والدوران ولكنها انتهت إلى وجود سلطة الفرد الواحد المحافظ بمحازبيه ومستشاريه فقط، ومقاطعة الأطراف المتضررة كافة، حقاً وباطلاً، من هذا النهج، والتي عوقبت بحرمانها موقتاً من الحصول على مغانم الحكم وامتيازاته. بكلمات أخرى، فإن النهج الإفراطي لحكومة المالكي هو الوجه الآخر وغير المنتج بل والتخريبي لنهج حكومة العبادي التفريطي وكلاهما سيقود إلى خراب العراق وإلحاق الأذى بشعبه ونهب ثرواته وجعل التقسيم «حلاً سائغاً» في نظر العراقيين، وهذا ما تسعى إليه واشنطن وحلفاؤها الإقليميون وفي داخل العراق. ولهذا فهم يحاولون إحياء عظام العملية السياسية الطائفية وهي رميم، رغم أن العقل والمنطق والتجربة تقول إن «لا حلَّ لها إلا بحلّها»، ولكن أهل الحكم يريدون إقناع الناس بمقولة تهديدية مفادها: «ودون حلّها خرط القتاد»!

* كاتب عراقي

كلُّها من الغرباء والأجانب، لم يكن ثمة سوريون بينهم، ومن يطالع حالياً المشاهد القليلة الصادرة من المناطق التي تقع تحت سيطرة هذه المجموعات سواء في الرقة أو ريف دير الزور أو غيرها، يشاهد مناظر احتلال الغرباء للمواطنين السوريين، وجوهٌ طارئةٌ غريبةٌ على هذه البلد العتيقة وسكانها المخضرمين بعبق الحضارات المتعددة القديمة.

لا بد أن الحرب والصراعات التي تجرى على الأرض السورية قاسيةٌ، وستكون صعبةً في المستقبل إذ طالما كانت حربُ العصابات مقتلةً للجيوش النظامية، والأدلة تكاد لاتُحصر في اندحار الجيوش النظامية في الحروب الاستنزافية الطويلة التي تشنها العصابات. حدث ذلك مع الجيش الأميركي في ثلاثة بلدان (فييتنام وأفغانستان والعراق)، وأصابت الجيش السوفياتي الهزيمة ذاتها في أفغانستان قبيل انسحابه وتفككه لاحقاً.

إن سقوط الجيوش النظامية في حرب العصابات تكاد تكون قاعدةً صحيحةً بلا شواذ، فما الذي يختلف في الحالة السورية؟

تصدّر وسائلُ الإعلام ووسائط التواصل الإعلامي والخبري الالكترونية كلَّ فترة مشاهد متصاعدة من التوحش والتطرف والإجرام غير المسبوق الذي يُمارس على عناصر من الجيش السوري، فبعد العبث بالأجساد والرؤوس والذبح بالسكاكين، صدّرت الصورُ الأخيرة طرقَ متوحشةً جديدةً في التعامل مع أسرى الجنود السوريين، حيث صفّي الجنود على خلفية طائفيةٍ بين أرجل الغوغاء في مدينة، طريقة شيطانية مبتكرة في القتل، تُسحل الأجساد بعدئذٍ في الشوارع.

كان الجيش السوري منذ بداية الحرب على سورية هدفاً أساسياً لهدّ الكيان وتفتيته، شاعت الروايات التي تصفُ شهداء الجيش بأنهم يُصفون بأيدي زملائهم أو قادتهم لأنهم يرفضون الأوامر، وصارت مناقشةُ الانشقاق بشكل منطقي أمراً متعذراً، فقد بُولغ بهذه الظاهرة التي لم تكن إلا شكلاً طبيعياً عندما تتعرض الجيوش لمثل هذه الضغوط والضخ الإعلامي، لم تكن إلا ظاهرة فرار من المسؤولية وكان حجمها في الحدود المعتادة لمثل هذه الظروف التي مرت بها سوريا من حرب قاسية.

ما فاتَ المنظرين السياسيين الذين يكتبون بصعوبة انتصار الجيوش على العصابات أن الجيش في سورية ليس وافداً إلى ساحة المعركة الدائرة، وليس محتلاً لها أو مرتزقاً، بل هو يدافع عن أرض وطنه. والجيش السوري الممثل لوحدةِ الكيان السوري بأطيافه المختلفة هو الركيزة الأساسية التي تستبقي وحدة الأرض السورية وهو ضمانته الوحيدة، وقد أثبت في السنوات الفارطة من عمر الحرب على سوريا أنه قادر على إكمال مسيرة التضحية والفداء، وانه استطاع أن يمر بأصعب المراحل وأن يتجاوزها، وبات إكمال المشوار أقلّ كلفة.

ازداد هذا الجيش في مشوار الدفاع عن سوريا مراناً وتدريباً عملياً، واكتسب الخبرة اللازمة في حرب العصابات. وأضيفت لعديده الكثير من الفصائل الشعبية والحزبية الداعمة (مثل الجيش الوطني وكتائب الأحزاب وغيرها) التي عانت من حالات الشيطنة والكره والاستعداء الشديد من قبل المسلحين.

إن الطبيعة المحتدمة والمحمومة والمجنونة في الصراع من اجل السيطرة على سوريا أو استنزافها وتدميرها، والتي تشابه بخلاصتها الراهنة الخلاصة التي وصل إليها الحزبيون القوميون في الثمانينيات، يصل الجيش السوري بعناصره اليوم لها، مع فارق وحيد أن الطرف المقابل لهم والذي لا يرحمهم ويمثل بجثثهم هو طرفٌ لا يمثل السوريين. طرفٌ من الغرباء والمرتزقة والمضللين يشكلون احتلالاً واقعياً على الأرض السورية التي كانت لفترات طويلة

لبست الثورة لبوس الحرب وصارت خليلة لكل الغرباء وأصحاب الأوهام والمغامرات

عريناً مُصاناً آمناً مطمئناً مُحرّماً على القدم الغريبة.

مع هذا القدر المتعاظم من الحقد والتوحش والتكفير وانعدام الرحمة لم يتبق للمدافعين عن سوريا - السوريين منذ الأزل - خياراً آخر، مهما كانت الأكلاف باهظة والتضحيات مؤلمة، إلا أن يملأ قلوبهم الغضب والرغبة الوحيدة بالانتصار والذود عن هذه البلاد التي اعتادت على حروب الغرباء، فيمرقون بذلّهم وبربريتهم وقلوبهم السوداء بلا طيف أو أثر. وتبقى لهذه الأرض المطّهرة العتيقة قدسيتها وجلالها وشرفها معجونةً بدماء أولادها المخلصين الشجعان، وتورد فوقَ ثراها أزهار شقائق النعمان وتنطلق في أجوائها نسماتُ زهر الياسمين.

اليوم تتغيرُ المعادلات وتبدأ التوازنات الجديدة للكون، وتتولد الأقطاب المتعاكسة، وتحتمل سوريا الاضطراب العظيم والفوضى العمياء، وتدفع ثمنَ معمودية الحديد والنار دفاعاً عن دورها الحضاري الموغل عميقاً في التاريخ البشري. وها هي وقد دفعت الثمنَ من دماء أبنائها المخلصين الشرفاء، وهاهو الفجرُ الآتي يلوح في الأفق، سيبقى في هذا الشرق الحضاري من يرفعُ إصبعه معانداً معترضاً على سياسات «نظام العالم الجديد»، ويقول لسلاطين الرجل الأبيض ووكلائهم الحصريين وخدامهم وعملائهم الممتلئين بروائح النفط والغاز وعوائدها: لن تمروا.

بخلاصة مفيدة هذا جيش وطني متمرس يخوض حربه المقدسة دفاعاً عن أرضه وأرض أجداده أمام فلول من الغرباء والمرتزقة والمضللين، وليس أمامه إلا أن يحقق النصر واستثناء القاعدة.

فهل أدرك الغرباء سرّ الفولاذ الدمشقي؟ وهل فهموا معادلات فيزياء التاريخ في بلادنا، وهل اشتموا رائحةً لمن آثرَ الرحيل والغياب عن هذه الأرض المشرفة المطهرة؟ إنه الاستثناء السوري، استثناء الأرض والإنسان.

* كاتب سوري